

اللغة الأم¹

بقلم : جوزيف ميشال شريم

Abstract : « La langue maternelle » est un dossier comprenant quatre études qui s'intitulent comme suit : « La langue maternelle et la langue étrangère », « La langue maternelle et l'évolution des langues », « La dynamique de la langue parlée dans la langue maternelle » et « La systématique de la langue arabe » qui constitue en quelque sorte un guide au lecteur arabe qui souhaiterait lire deux livres de base, rédigés en français et axés sur la langue arabe comme système de système. Il s'est agi pour moi chaque fois de répondre à la question : quelle est la nature de la langue maternelle ? Quelle est ma langue maternelle ? Pour y répondre j'ai souvent fait appel à tel ou tel linguiste arabisant. Je n'ai pas hésité à vérifier ce qu'en dit tel ou tel lexicographe arabe. J'ai pu arriver à la constatation que l'arabe dialectal et l'arabe littéral sont les deux manifestations d'une même entité qui ne cesse de se développer et de rajeunir.

¹ أنجز هذا الملف بالكامل في 21 شباط 2013

مناسبة يوم اللغة الأم

نحتفل كل سنة منذ بداية الألفية الثالثة، في الحادي والعشرين من شهر شباط/فبراير، باليوم العالمي للغة الأم، في سياق مبادرة أطلقتها الجمعية العامة لمنظمة الأونسكو، لأول مرة، في تشرين الثاني من العام 1999، بهدف تشجيع الدول المنتمية إلى المنظمة على إعلاء شأن اللغات السبعة آلاف المتداولة على وجه الأرض وتحويل هذا اليوم إلى مظاهرة عالمية شاملة وفعّالة لحماية التنوع الثقافي اللغوي وتعزيز استخدام اللغة الأم لنقل المعارف والعلوم. وهذا ما يبرّر ما نادى به الأمين العام للمنظمة، عندما قال: " فلنبحث اليوم، أكثر من أيّ وقت مضى، عن التفاهم بين الشعوب وعن الاعتراف بثقافاتنا المختلفة، من خلال احترام لغاتها، وطرق التفكير التي تُعبّرُ عنا من خلال هذا اللغات".

فما هذا الحدث إذا إلا للتأكيد على الأهمية القصوى لتنوع اللغات وتضافر الجهود في سبيل المحافظة عليها، محافظتنا على تراث عظيم تتقاسمه الإنسانية؛ وكذلك لتبادل الأفكار بين الباحثين الجامعيين والألسنيين واللغويين والجمعيات الثقافية، وغيرهم من ممثلي الدول الأعضاء في الأونسكو، بشأن مواضيع الثقافة والتربية واللغات، وتنظيم الأنشطة الثقافية المحلية المتعدّدة.

لذلك أردتُ أن تكون أبحاثي الأربعة الآتية، تلبية متواضعة لهذا النداء وإسهاماً في الأنشطة الثقافية الدولية والحركة الفكرية العالمية؛ ما قد يعطي شعوراً مُطمئناً بأننا ننتمي حقيقةً إلى مجموعة عالمية متجانسة من المفكرين والمنقّفين والباحثين؛ وكذلك تدليلاً على تعلقٍ بتراثٍ تاريخي حضاري لغوي ولبناني عربي، على تعدّده وتنوّعه.

المواضيع التي سأتناولها تتمحور حول قضية مركزية لطالما شغلت البال لأنها من صميم الهوية: ما هي اللغة الأم؟ ما هي

لغتنا الأم؟

"اللغة الأم واللغة الأجنبية"²

بقلم: جوزيف ميشال شريم

ليس هدفي من هذه الدراسة أن أدخل في جدل ما حول تحديد لغتي الأم، أهي اللغة العربية، أم اللغة المحكية (أو العامية أو الدارجة وقد تعددت التسميات) أم اللغة الإقليمية، كما يقول أندري رومان في كتابه: "الخلق المعجمي في العربية/ دراسة تعاقبية تزامنية لأصوات اللغة العربية وأشكالها الصرفية"³، الذي نشرته كلية الآداب في جامعة الروح القدس - الكسليك - لبنان، بل أريد أن تقتصر مداخلتني على العلاقة بين اللغة الأم (مهما كان تحديدها واتساعها باللغة الأجنبية (أو اللغات الأجنبية) وبلغة التواصل العالمي (أي ما يسمّى بـ Lingua Franca).

سأتناول اللغة الأم، أولاً في مرحلة الطفولة، وثانياً في الإطار المدرسي وعلاقتها بتعلّم اللغة الأجنبية، وثالثاً في الإطار الجامعي وعلاقتها ببلغة التواصل العالمي، قبل أن أنهى بظاهرة التتكرّر لها في بعض المجتمعات.

أولاً - اللغة الأم في مرحلة الطفولة

² أنجزت هذه الدراسة في شكلها النهائي في 21 شباط 2011.

نعني باللغة الأم اللغة الأولى التي يتكلمها الطفل. وفي بعض الحالات، عندما يتلقى الطفل تربيته على يد أهل أو أشخاص يتكلمون لغات مختلفة، يستطيع، في وقت واحد، اكتساب هذه اللغات، ويمكن اعتبار كل واحدة منها "لغة أم". حينها، يكون الولد في وضع الثنائية اللغوية.

ولكن هل تعلمون أن الولد الرضيع يصرخ في لغته الأم؟ فبحسب دراسة نشرها فريق مشترك فرنسي ألماني، في الخامس من تشرين الثاني 2009، لا يصرخ الأطفال الرضع الفرنسيون والألمان، بعد أيام من ولادتهم، باللغة نفسها. ففي حين أن صوت الفرنسيين يتخذ خطأ متصاعداً، ينطلق صوت الألمان من النغمية المرتفعة كي ينتهي إلى الصوت الخفيض.

وتتابع الدراسة أن السبب في ذلك هو، على الأرجح، الاختلافات النغمية في كلتا اللغتين اللتين يسمعهما الرضع قبل الولادة والتي يتوسلون بها بعدها.

ولقد أشار بيان صدر عن معهد "ماكس بلانك" (Max Plank)، وخصوصاً باحثان من هذا المعهد شاركا في التحقيق إلى جانب مختبر العلوم المعرفية في دار المعلمين العليا في بارس، إلى أن "السمع هو النظام الحواسي الأول الذي ينمو لدى الجنين، والجنين هو المستمع المتيقظ في الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحمل.

وبحسب تحليل صراخ الطفل، الذي أجري في أحد المراكز الطبية في ألمانيا، فإن المولدين الجدد يفضلون النماذج النغمية الخاصة بلغتهم الأم. والحال أن النبرة النغمية الفرنسية تتبع خطأ تصاعدياً في نهاية الكلمات، في حين أن العكس هو الصحيح في اللغة الألمانية. وهذه النبرات الصوتية، نجدها في صراخ الأطفال الرضع الذين يتوسلون هذه اللغة أو تلك.

ويبدو أن الأطفال الرضع، في جميع أنحاء العالم، يحاولون، من خلال تقليد أمهاتهم، أن يقيموا أول اتصال بهنّ. وبحسب العلماء المختصين، يبدو أن هذا الإحساس المبكر بالنغميات اللغوية يساعد الأطفال الرضع، لاحقاً، على اكتساب لغتهم الأم، مع أنّ مصدر هذه الملكة، بحسب بعض الباحثين، سابق لظهور اللغات المحكية، كما نعرفها اليوم.

ثانياً - اللغة الأم واللغة الأجنبية في مرحلة التعليم المدرسي

ليس هناك من لغة أجنبية في حدّ ذاتها. ولا يمكن لأي لغة أن تكون أجنبية، في المطلق، وما هي لغة أجنبية بالنسبة إليّ قد تكون لغة أم بالنسبة إلى آخرين. ومن الضروري أن نعتبر اللغة الأم نقطة انطلاق محتومة لكلّ تفكير حول مفهوم اللغة الأجنبية، بحدّ ذاته. ولكي يكون هناك تعلّم للغة أجنبية، ينبغي أن يكون هناك نيّة، أي قرار واعٍ يرتبط بآلية معقّدة تنطلق من اعتبارات فردية وسوسولوجية على حدّ سواء ومن إشكالية بناء الفرد على أساس الوظائف النفسانية العليا.

بشكل مبسّط وأساسي، يمكن القول إن الوظائف النفسانية العليا⁴ هي وظائف مكتسبة، تنمو أولاً على مستوى العلاقات الاجتماعية وتنتقل إلى الأفراد من خلال آليات التعلّم والاندماج الاجتماعي/ والتميّز عن الآخرين. وهي تنشأ من التفاعل بين الأفراد الذين تشكّل ديناميكيتهم الواقع الاجتماعي. ويتمّ اكتسابها من خلال حركة تسير من خارج الفرد إلى داخله ووعيه. ويرتبط

⁴ راجع : تاريخ تطور الوظائف النفسية العليا، ل. س. فيغوتسكي / ترجمة د. بدر الدين عامود.

اكتساب الوظيفة النفسانية بألية خاصة تقوم على تنظيم الانتقال من الاجتماعي والتفاعل بين الأفراد، إلى وعي الفرد، الذي يعكس، على شكل نظام من الرموز، هيكليات من الفضاء الاجتماعي.

المعرفة التي تمثلها اللغة الأم تختلف طبيعتها عن طبيعة المعرفة الجديدة التي تقترحها آلية تعلم لغة أجنبية. ففي ما يتعلّق بالطفل، تعكس اللغة الأم التجربة المعاشة، ويتمّ اكتسابها بشكل عفويّ نتيجة تجارب وخبرات يؤدّي إليها الاحتكاك بالبيئة المباشرة. وهي تنظّم العالم بحسب علاقات ملموسة مباشرة، وترتبط بالحياة الصميمية وبنموها وتطورها⁵. وبالتالي، يستوعب الطفل في المدرسة لغة أجنبية بطريقة مغايرة لتعلمه اللغة الأم. ويمكن القول إن هذا الاستيعاب يتبع طريقاً مغايرة تماماً للطريق التي تتبعها تنمية اللغة الأم. ولا يبدأ الطفل أبداً باستيعاب اللغة الأم من خلال دراسة الأبجدية والقراءة والكتابة وتركيب الجمل بشكل واع

⁵ راجع:

Anthony JOUBIER, « Les rapports entre la langue maternelle et la langue étrangère dans l'enseignement précoce. L'exemple des écoles françaises de l'étranger », [HTML](#), 2008 : « La connaissance d'accueil que représente la langue maternelle, cette matrice en quelque sorte, n'est pas de même nature que la connaissance nouvelle proposée par le processus d'apprentissage. Pour ce qui concerne l'enfant, la langue maternelle appartient à son vécu intime, et elle a été acquise spontanément dans des expériences suscitées par le contact avec son environnement immédiat. Elle n'est pas essentiellement réflexive, elle organise le monde selon des rapports sensibles immédiats. Elle est liée à la vie affective et à son développement. Elle est organisée subjectivement et renvoie à l'intimité ».

هادف، وتحديد دلالة الكلمة ودراسة القواعد، أي كلّ ما يشكّل عادة بداية استيعاب اللغة الأجنبية. بل هو يستوعب لغته الأم بطريقة لاواعية ولا قصدية. بينما يبدأ تعلّم اللغة الأجنبية من خلال إدراك قصديّ ملموس.

الحقيقة أن الطابع المدرسي لتعلّم اللغة الأجنبية يحدد الصيغ الخاصة بالعلاقة الواعية والعقلانية بهذه اللغة التي نسمّيها أجنبية. وهذا ما يضعها حكماً إلى جهة المفهوم العلمي، بما له من قوّة (أي طابعه الواعي والمنظم والمبني) وضعف (أي نقص في الحقيقة الذاتية والتجذّر في صميمية الفرد الحياتية الوجودية)؛ ولأنّ للغة الأجنبية طابع المفهوم العلمي، فهي تخضع بالضرورة للغة الأم.

بالإضافة إلى اكتساب المعلومات، بالطريقة المألوفة، ينبغي للتعلّم الناجح أن يؤدي إلى قدرة نفسانية جديدة ناتجة من التعامل بين الفرد والمجتمع، تصل إلى تبدّل هوية الفرد. وتشكّل اللغة الأم الوظيفة الأساسية من بين الوظائف الاستقبالية، إذ يفترض استيعاب لغة أجنبية في المدرسة، نظاماً مسبقاً من الدلالات في اللغة الأم. والحال هذه، لا يحتاج المتعلّم إلى استيعاب مفاهيم جديدة. بل عليه أن يتعلّم كلمات جديدة، تتوافق تماماً ونظام المفاهيم، الذي سبق له أن اكتسبه بواسطة لغته الأم. وبالتالي، ينشأ رابط جديد تماماً بين الكلمة والشيء، يتميّز عن الرابط الموجود في اللغة الأم. ويكون للكلمة "الغريبة" التي يكتسبها علاقة بالشيء، غير مباشرة، أي بواسطة كلمات اللغة الأم.

يفسر هذا نظام العلاقات التي تحدد المفاصل بين اللغة الأجنبية واللغة الأم: فبينما يبدأ تطوير اللغة الأم بممارستها العفوية اليسيرة وينتهي بإدراك أشكالها الكلامية والتمكّن منها، يبدأ تطوير اللغة الأجنبية بإدراك اللغة إدراكاً واعياً، وينتهي بالتكلم اليسير

والعفويّ بها. والطريقان يسلكان اتجاهين معاكسين. ولكنّ بينهما ترابطاً متبادلاً، كما هي الحال بين تطوير المفاهيم العلمية وتطوير المفاهيم العفوية. وبالإضافة إلى الاختلاف البديهي بين الكلمات، أي في ما يتعلّق بالنظام الصوتي الخاص بكلّ لغة، وكذلك بين الروابط النحوية التركيبية الخاصة بهذه اللغة أو بتلك، ثمة اختلاف آخر يكمن في طبيعة التجربة الفكرية التي تربط الفرد بهذه اللغة أو بتلك.

فالهدف المنشود في كلتا الحالين هو مبدئياً واحد: الوصول إلى وجودية متكلم ما. ويستتبع هذا أن ما ينقص في تعلّم لغة أجنبية، أي التجربة الوجودية المعاشة التي تغوص جذورها في أعماق أعماق الذاتية، ينبغي أن يشكّل موضوعاً لعمل خاص في إطار الحصة المخصصة للدرس اللغوي، يهدف قدر المستطاع، إلى التعويض عن هذا النقص الجوهرى الأساسى الذى يعيق عملية تعلّم لغة ما.

ولا يتعامل الفرد مع اللغة الأم واللغة الأجنبية بالطريقة نفسها. ففي حال اللغة الأم، اكتسابها جوهرى بالنسبة إلى المتكلم بها الذى ينمو نفسانيا ويرسى أسس هويته في الوقت الذى يتوغّل في الكلام ويتمكّن منه في علاقاته الاجتماعية واحتكاكه بالآخرين.

أما اللغة الأجنبية، فلها طابع ثانوي، على المستوى الزمنى أولاً، وثانياً لأنها لا ترتبط، في بيئة المتكلم الحيوية، بواقع تواصلى عاطفى مباشر.

وتختلف مكانة كلّ من اللغة الأم واللغة الأجنبية في المدرسة في العديد من النقاط:

أولاً، اللغة الأم هي لغة تواصل (تتيح تبادل الأفكار بين الطلاب ومع الأساتذة، داخل الصفّ وخارجه) ولغة تعليم (أي وسيلة نقل شفوية وكتابية للمعارف في جميع الموادّ الدراسية) ولغة نتعلّمها، كتابة وقراءة، ونتعلّم قواعدها ومفرداتها وشعرها ونثرها. وهي بالتالي تشكّل نقطة استقطاب واهتمام في كلّ مادة من موادّ التعليم.

واللغة الأم هي أيضاً وسيلة متوافرة حكماً ينبغي ألا يطرح تعليمها أي مشكلة في المدرسة المؤسسة التربوية. وهي شائعة ومشاركة بين الأساتذة والطلاب، وشفافة، وضرورية وشرعية ولها ما يبرّرها كأداة تواصل⁶.

أمّا اللغة الأجنبية فهي لا تشكّل في المطلق وكقاعدة عامة، بالنسبة إلى الفرد، أداة تواصل، في إطار المدرسة والعائلة والمجتمع الذي يعيش فيه هذا الفرد؛ بل هي تتمتع، حصراً، بوضع اللغة الهدف التي تأخذ كلّ مؤسسة تربوية على عاتقها تعليمها وتلقينها: من هنا التفاوت في تلقينها بين مدرسة ومدرسة وبين منطقة ومنطقة وبين قطاع تعليمي (خاص) وقطاع تعليمي آخر (القطاع الرسمي). وتتمّ ممارستها بشكل محدود في الزمان والمكان. وليس لتلقينها، في المطلق، أي رهانات وجودية مباشرة.

وبالتالي، يجسّد التعليم المبكر للغة الأجنبية موقفاً إرادياً تتخذه المؤسسات التعليمية والهيئات السياسية، لأسباب إيديولوجية في جزء منها، أكثر مما يعكس ضرورة واضحة يشعر بها الطفل، أو حاجة اجتماعية ذاتية عفوية.

⁶ القضية الكبرى في بلادنا أن اللغة الأجنبية، ولألف سبب وسبب، تؤدّي بعض وظائف اللغة الأم.

لذلك يصطدم تعليمها بمعوقات لا يتيح التلقين المبكر لها بإزالتها بالكامل. وما يكسبه المتعلم من سهولة التلقظ بها لا يعوّض ما يفتقر إليه من تصوّر البيئة التي تنشأ فيها هذه اللغة. وبالتالي، تبقى تبريرات تعلّم اللغة الأجنبية خارجية، مرتبطة خصوصاً بملاءمة النهج التربوي المقترح، وبما يقدمه من غنى وفعالية برغماتية. بيد أن هذا النهج، على مستوى التطبيق والاستعمال والاستخدام، يبقى بعيداً كلّ البعد عن فعالية أساليب اكتساب اللغة الأم.

تشكّل اللغة الأجنبية، في البداية، شيئاً غامضاً بالنسبة إلى المتكلم. لهذا السبب، من الضروريّ تأمين مراحل انتقالية، وبالتحديد مساحات احتمالية تملؤها أشياء وأغراض انتقالية، يتمّ استبعادها ونسيانها عندما تردم الهوية، جزئياً، إلى حدّ ما، بين المتعلم والواقع. وتتشكّل هذه الأشياء وهذه الأغراض، في العملية التلقينية، من أدوات تربوية وتمارين وأنشطة في الصفّ وخارجه.

ولا يقتصر التخطيط التربوي، هكذا، على تصوير الشيء، بل ينبغي أن تتحوّل المعرفة الخارجية المجرّدة إلى معرفة داخلية حيّة. عند هذه النقطة، تصطدم العملية التربوية بمسائل ابتكار النماذج الوظيفية الترفيحية، بالإضافة إلى النماذج المعرفية.

يتطلّب تعليم اللغة الأجنبية، إذاً، إيجاد آلية تعليمية ملائمة تسمح بتنظيم التلاقي، في الظروف الخاصة بالمدرسة، بين هذه اللغة الأجنبية وبين المتعلم. وقلّما يؤدّي الدرس التقليديّ القائم على التحليل والتفسير والتلقين والحفظ، إلى نتائج مقبولة على مستوى الهوية والعاطفة والانفعال.

كيف يستطيع البعد التخيلي أن يأخذ مكانه الصحيح في مقومات العلاقة بين الفرد والعالم؟

نحن نعلم أن البعد التخيلي هو هذه الآلية التي تحوّل العالم إلى عالم خاصّ بالفرد، وهو كذلك هذه الوسيلة التي تحوّل الأشياء إلى أشياءه. والفرد بدوره يعتبر نفسه، من خلال البعد التخيلي، قادراً على امتلاك اللغة الأجنبية. ومن خلال هذا البعد التخيلي، ومن خلال طرائقه، تنتظم العلاقة بين اللغة الأجنبية والفرد. ولا يمكن لأيّ صيغة أخرى، غير تخيلية، أن تعطي اللغة وجوداً معيناً، بالنسبة إلى المتعلّم.

وهكذا، فإنّ قرار اعتماد هذا النهج التلقينيّ أو ذلك، كواسطة ترفهية ينبع من حسّ بديهي سليم، يشكّل صيغة جوهرية لعلاقة المتعلّم بالعالم ويمكن من تصوّر المساحة المدرسية كمكان لتطبيق منتظم لبعض الثوابت الأساسية في طريقة عمل اللغة الثانية، على شكل فضاء تخيلي من التواصل والتصوّرات، الآيلة إلى الحلّ محلّ المساحة الحقيقية، غير المتوقّرة.

ثالثاً - اللغة الأم ولغة التواصل العالمي، في المرحلة الجامعية

أصبحت اللغة الإنكليزية لغة التواصل في الميدان العلمي الحديث. وهي تؤدّي اليوم الدور الذي أدّته اللغة اليونانية في زمن السيد المسيح، ودور اللاتينية في القرون الوسطى، ودور الفرنسية حتى القرن التاسع عشر.

بيدو، إذا، أن الناس أجمعين، وخصوصاً الجامعيين والمتقّفين من بينهم، قد استعملوا، في أيّ زمن كان، لغة تواصل عالمية، لأنّ حسنات هذا الاستعمال تتخطّى بالتأكيد سيئاته. ويخضع اختيار لغة التواصل، في جوهره، للقوّة الاقتصادية أو العسكرية للشعب الذي يتكلّم هذه اللغة، ولما ينتج عن ذلك من هيبة ونفوذ وتأثير. ويحدث أن الإنكليزية هي التي تحنلّ اليوم هذا الموقع، من جرّاء هيمنة الولايات المتحدة اقتصادياً وثقافياً.

فوائد لغة التواصل العالمي هذه لا حدّ لها ولا حصر؛ نذكر من بينها علي سبيل المثال وليس الحصر، في الميدان الجامعي، سهولة الوصول إلى ما يُنشر من كتب وأبحاث؛ وسهولة التواصل الشفهي في المؤتمرات. ويضاف إلى ذلك أننا لا نجد في أغلب بلدان العالم عددا كبيرا من الاختصاصيين في كلّ ميدان، يستطيعون الاستغناء عن أي لغة تواصل عالمي، وأن سهولة التواصل من خلال لغة التواصل العالمي (أي ما سمّي باللنغوا فرنكا) تعطي الباحث والمتقّف عموماً شعوراً مُطمئناً بأنه ينتمي حقيقة إلى مجموعة عالمية متجانسة. وينبغي أن نفتتح بأن لا وجود لشبكة عالمية من الباحثين، من دون لغة تواصل عالمي.

أمّا الوجه السلبي للغة التواصل العالمي هذه، فيتمثّل في ما يلي:

يشعر الباحثون الذين يكتبون بغير الإنكليزية، بالغبن، مقارنة بمن يكتب في هذه اللغة. فمن يقرأ الإنكليزية، يستغن عما يكتب من أبحاث مهمة في غيرها من اللغات. ولا تعود تطرح الإشكاليات البحثية إلا من وجهة نظر الناطقين بالإنكليزية؛ مع العلم أنّ لا شيء يؤكّد أنّ وجهة النظر هذه هي الفضلى وأنها الأكثر ابتكاراً (على المستويات كلها: الاقتصادية والفلسفية والألسنية والدينية، إلى آخره...).

ما هي الحلول التي يمكن اقتراحها لهذه الآثار السلبية لهيمنة الإنكليزية وللمحافظة على التعددية اللغوية؟

ثمة حلّ يتمثّل في جعل الأنظمة التربوية في جميع بلدان العالم تعدّ مترجمين متخصصين في مختلف العلوم، قادرين على امتلاك لغة أجنبية واحدة أو أكثر، بإمكانهم تأدية دور الوسيط بين مقومات المجتمع الدولي ونقل الكتب المنشورة في اللغات

المختلفة. مما يساعد على الانفتاح الضروري بين بلدان العالم أجمع. ومن يتخصّص في هذه اللغات (أي المترجم) يطلب إليه حتما نقل الكتب القيّمة من وإلى هذه اللغات.

أن تكون الإنكليزية لغة التواصل العالمي في الميدان الاقتصادي وفي سائر الميادين، لا يزعج بالنتيجة أحداً. فالعالم كان ولا يزال بحاجة إلى مثل هذه اللغة. ومن السهولة بمكان الحدّ من الآثار السلبية لهذه الهيمنة اللغوية. ولو كانت أي لغة أخرى تؤدي الدور نفسه، لكان ما يقال بشأن الإنكليزية ينطبق عليها، وكانت الأمور هي هي.

الخطر هو في مكان آخر، أي في خضوعنا الأعمى لأيديولوجية قد لا تكون الفضلى، كأيديولوجية تأليه العنف، كما نرى على شاشات السينما والتلفزيون الأميركيين.

الخطورة، كلّ الخطورة هي في أن اللغة تعكس تصوّراً معيّناً للعالم؛ والتصوّر الذي يفرض نفسه في غالب الأحيان هو تصوّر الطبقات الاجتماعية المهيمنة التي تتكلّم بهذه اللغة أو تلك. وليس من المؤكّد أن تكون الأيديولوجية التي تنقلها الإنكليزية ومن يتكلّم بها مؤاتية تماماً، كما في الاقتصاد والليبرالية "الوحشية"، بحسب العبارة الأوروبية. وليست الإنكليزية هي اللغة الوحيدة التي تعبّر عن هذه الأيديولوجية القائمة على هيمنة الاقتصاد على السياسة، ولكنّ تأثير اللغة الإنكليزية كلغة دولية يضفي على ما يقال بواسطتها هالة من الحقيقة لا يمكن مناقشتها.

هل يدرك هؤلاء المتحكمون بزمام الاقتصاد أن نجاح سياستهم الامتثالية سيؤدّي بإشكالياتهم وتصوّراتهم الاقتصادية ومصطلحاتهم إلى الاندماج في الفضاء الأنغلو ساكسوني وإلى إفراغ باقي اللغات من أي مضمون في الميادين التي يحسب لها ألف حساب؟

رابعاً وأخيراً - تنكّر المرء للغته الأم

اللغة الأم هي اللغة التي يتكلّم بها المرء أولاً، وليس في الأمر مشكلة. اللغة التعليمية هي البوابة التي تنقل المرء إلى العالم الأوسع، وليس في الأمر مشكلة. المشكلة تنشأ عندما يقرّر المرء التنكّر للغته الأم. وفي هذا الأمر، العجب، كلّ العجب. ومن الحمق أن يقول المرء إنه يمتلك لغة لا يتكلّم بها ولا يتقنها، خصوصاً أنّ اللغات تتغيّر باستمرار ولا نعود ندري إذا ما كنّا نتكلّم لغة اليوم أم لغة الأمس./.

مراجع الدراسة

FRATH, Pierre:

« Hégémonie de l'anglais : fantasmes et dangers », in *Les langues modernes/ dossier : l'Europe des langues*, n° 3, pp. 31-38, 2001.

JOUBIER, Anthony:

« Les rapports entre la langue maternelle et la langue étrangère dans l'enseignement précoce. L'exemple des écoles françaises de l'étranger », [HTML](#), 2008.

ROMAN, André :

La création Lexicale en arabe, Université Saint-Esprit de Kaslik, Faculté des Lettres, Département d'Interprétation et de Traduction, CEDLUSEK, Liban et Presses Universitaires de Lyon, 2005.

"اللغة الأم وتطور اللغات"⁷

بقلم : جوزيف ميشال شريم

أفترض أنّ اللغة الأم هي هذه اللغة التي نكتسبها صغاراّ ونتواصل بواسطتها مع من نشاء من دون تعقيدات أو حتى ضوابط تذكر. ولقد حان الوقت لكي نُبرّر حقيقة أنّ العملية التربوية التي تتمّ من خلال اللغة الأم، هي الأكثر فعاليةً بين العمليات التربوية الأخرى.

ولكنّ الطفل، عندما يتعلّم لغته الأم، يمتنع عن استعمال عددٍ من الإمكانيات التعبيرية الخاصة بلغات أخرى. وعندما يعتاد على إدراكها وعلى التلفّظ بها، يتعامى عن إمكانيات لفظية وإدراكية أخرى. والتوافق الذي يحصل، في الطفولة الأولى، مع عادات اللغة المحكية التي يتكلّم بها الكبار، يحدّد لدى الأطفال عدداً من "نقاط التعامي"، بالمعنى الإيجابي لهذه العبارة. وعليه، عندما يسمّي "الهرّ" هراً يمتنع عن تسميته "chat"، كما في الفرنسية أو "cat" كما في الإنكليزية. يعني هذا أننا نربط بين صورة هذا الحيوان وكلمة عربية، نتلفّظ بها بأصوات عربية؛ مع العلم أنّ هذه العادة اللغوية العربية لا تستبعد عادات لغوية أخرى؛ ولكنّها لها الأفضلية على تلك العادات اللغوية الأخرى.

⁷ أنجزت هذه الدراسة في 21 شباط 2012.

للغة مكانةٌ مميزةٌ، إذ هي تفتح البابَ على الكلام والفكر . ولكنها في الوقتِ نفسه تَحْتَجِرُنَا في نظامِ كلاميِّ فكريِّ خاصٍّ بها، وتطَبِّعُ عاداتنا الإدراكية واللفظية التي ينبغي لنا أن نفتتحَ بأنها ليست الوحيدة التي تتيحُ لنا أن نعبرَ عن فكرنا بواسطتها، مع أنها عاداتُ آبائنا وأجدادنا الإدراكية اللفظية.

يذكرنا هذا بالثنائي اللغة؛ فهم يستطيعون التكلّم بلغتين بشكلٍ متساوٍ. وهذا الأمرُ ليس هبةً من الطبيعة، بل ثمرةٌ ظروفٍ معينة. فعندما يعيشُ الطفلُ الثنائي اللغة، في الوقتِ عينه، في بيئتين تتكلمان لغتين مختلفتين، يعني ذلك أنه يكتسبُ عادة استعمالِ نظامين ألسنيين مختلفين ويستطيعُ التكيفَ مع الناسِ الذين يتكلمون هذه اللغة أو تلك. وبالتالي، فإن أحاديي اللغة الذين يقرّرون تعلّم لغة ثانية، يتهيأون للذهاب في سفرٍ لغويٍّ طويلٍ وشاقٍّ، بسببِ معوقاتِ اللغة الأم، ومنها أنهم يبحثون، في اللغة الأجنبية، عن صورةٍ مطابقةٍ للغتهم، من دون أن يجدوها بالتمام؛ ويكتشفون كمّ أنّ هذه اللغة الأجنبية بعيدةٌ ومحصنةٌ. وهي، بالإضافة إلى ذلك حيةٌ وينطقُ بها جميعُ الذين يتكلمون بها. حينئذٍ، يتوجّبُ عليهم أن يلتقطوها تدريجيًا، ونُتفأ نُتفأ، كما تعلّموا لغتهم الأم؛ مع الفارقِ أنهم قد كبروا في السنّ وقد كانوا موهوبين أكثر لتعلّم اللغات في السادسة من العمر.

واللغة الحية هي التي تَنَاقَلُها الألسنُ، فَتَنَاقَلُ بِقَدْرِ ما تُسْتَعْمَلُ؛ وَلَكِنَّها تُوَلَدُ من جَدِيدٍ طالما أَنها حَيَّة. وهذا صَحِيحٌ تماماً بالنسبة إلى اللغة العربية التي عَرَفَتْ عواملَ تَطَوُّرٍ خارجيَّةً، تعودُ إلى التاريخِ الطبيعيِّ وإلى التاريخِ العام. وَلَكِنَّها عَرَفَتْ أيضاً عواملَ ساعدتْ في الحفاظِ عليها كما هي. ومن بَيْنِ عواملِ المحافظةِ هذه، أَنَّ التنظيمَ الاجتماعيَّ العربيَّ القديمَ كانَ تَنْظِيماً عائلياً، عشائرياً، قَبلياً، دخلتِ اللغةُ العربيةُ التاريخَ من خلاله، في نهايةِ القرنِ السادسِ المسيحيِّ، لغةً شائعةً بين القبائلِ العربيةِ، وقاسماً مشتركاً بين اللغاتِ القبليةِ الرَّاجِعةِ في ذلك الحين. ذلك أَنَّ اللغةَ العاميةَ الشائعةَ لا وجودَ لها إلا من خلالِ تنظيمِ سياسيِّ يَكُونُ الضامنَ الحاملَ لها.

ويدلُّ أولُ كتابٍ في النحو وضعَهُ سيبويه على أَنَّ المجتمعَ العربيَّ في القرنِ الثامنِ الميلاديِّ، كانَ مُهْتَمّاً بالمُحافظةِ على لغتهِ. وكانَ الشعرُ، وخصوصاً الشعرُ الجاهليُّ، قد أدَّى الدورَ الأساسَ في ثباتِ اللغةِ العربيةِ. من هُنا العبارةُ الشهيرةُ: "الشَّعْرُ بضاعةٌ من بضائعِ العرب". وما الدليلُ على العلاقةِ الوثيقةِ بينَ الشعرِ واللغةِ العربيةِ سوى أَنَّ العَرُوضَ في أساسه قد قامَ على النظامِ المُقطَّعيِّ العربيِّ: ساكن/متحرِّك وساكن/متحرِّك/ساكن. وبالتالي حافظَ الشَّعْرُ على النظامِ المُقطَّعيِّ العربي الذي يُوَدِّي بدوره دوراً رائداً في تنظيمِ اللغةِ العربيةِ.

ثم فرض القرآن نفسه، في القرن الثامن المسيحي، كتاباً عربياً كاملاً ناجزاً لا يمكن تقليده؛ وأصبح بالتالي المرجع المحوري الثابت، والعامل الأبرز في ثبات اللغة العربية؛ خصوصاً حين نذكر أن المسلم المؤمن يعتبره كتاباً منزلاً من عند الله، وأن اللغة العربية، لغة القرآن، توقيف من عند الله، وليست اصطلاحاً يمكن للبشر، من جيل إلى جيل، تبديله وإدخال التجديد إليه؛ إلا إذا كان التبديل والتجديد مطابقين لمعايير هذه اللغة، لغة القرآن.

بقي الوضع هكذا حتى جاء المعتزلة في نهاية هذا القرن الثامن فنادوا بعلم الكلام واعتبروا القرآن من تاريخ البشر وأن اللغة، أي لغة، هي ثمرة توافق بين من يتكلم بها. وهكذا فقد ساهم هؤلاء المعتزلة في استنباط العديد من المصطلحات الجديدة. لما جاء القرآن، كان يعني انقطاعاً تاماً عن الجاهلية، مجتمعة العرب القديم الذي دعي فجأة إلى اعتناق الإسلام وتغيير أفعه والالتزام بتضامن جديد مع الأمة التي اعتنقت الدين الجديد.

وكان لا بد للغة العربية من أن تقتفي أثر الناطقين بها.

لا شك في أن الخليفة المأمون قد أسس في القرن التاسع "بيت الحكمة" وفيه تمت ترجمة عدد كبير من الكتب السريانية واليونانية، مع ما تفرض هذه الترجمة من استنباط لمصطلحات جديدة.

ومع ذلك، بقي التقليد النحوي العربي يعتد، إلى حد كبير وكبير جداً على الشعراء القدامى. وبالتالي، لم تعد اللغة العربية، اللغة الأم لأي عربي، أي لغة التداول اليومي بأمرٍ تتغير وتتبدل بتغير الزمن وتبدله.

وكان لا بُدَّ لتغيرات الحياة اليومية في كل منطقة من المناطق العربية وكل بلد من البلدان العربية، من أن يتم التعبير عنها وتناقؤها من خلال لغة أخرى - لغة هذه المنطقة أو تلك، لغة هذا البلد أو ذاك - تتكيف مع متطلبات زمنها، وتتمايز أكثر فأكثر، مع مرور الزمن، عن اللغة العربية، لغة القرآن، من جراء ظروفٍ ومُعْطياتٍ وتطوراتٍ خاصة بها.

وتحوّلت اللغات الإقليمية، إلى لهجات تنتمي إلى ميدان اللغة العربية، ولكنها مختلفة عن هذه اللغة، من خلال نظامها المقطعي، وصرفها ونحوها.

في العصور الحديثة، أول عاملٍ من عوامل تطور العربية هو اللغة المحكية في هذه المنطقة أو تلك من المناطق العربية، التي تحوّلت إلى لغة أم تتداخل واللغة العربية الرسمية فتؤثر فيها كما تتأثر بها.

قد تؤدي هذه اللغات الأم، التي ساهمت إلى حد كبير في إبعاد اللغة العربية الرسمية عن أي اهتزاز يُذكر، إلى زعزعة هذه اللغة بطريقةٍ أو بأخرى.

ولكن، ما هي هذه اللغة الأم التي نلهجُ بها، اللغة العامية اللبنانية مثلاً؟

جوابي على ذلك ينطلق من أن اللغة هي، في أساسها، مجموعة من الأنظمة المتناسكة المترابطة، ومنها النظام الصوتي

الفونولوجي، والنظام المقطعي ونظام التسمية ونظام التواصل.

على المستوى الصوتي، نلاحظ أن اللغة العامية أدخلت بعض التعديلات على النظام الصوتي الخاص باللغة العربية

الكلاسيكية: يكفي أن نذكر مثلاً، صوت "الجيم" الذي حوّله العامية اللبنانية من حرف قمرّي، إلى حرف شمسيّ، نتيجة تأثرها

باللغات الأجنبية الغربية.

على المستوى المقطعي، نرى مثلاً أن العامية قد أدخلت مقطعية جديدة هي (ساكن+ساكن+ متحرك، كما في "بكيّت"

و"مشيت"، بدلاً من "بكيّت" و"مشيت".

أما على مستوى نظام التسمية، وانطلاقاً من عينة مؤلفة من 522 مصطلحاً رصدتها في "معجم الألفاظ العامية"، لأنيس

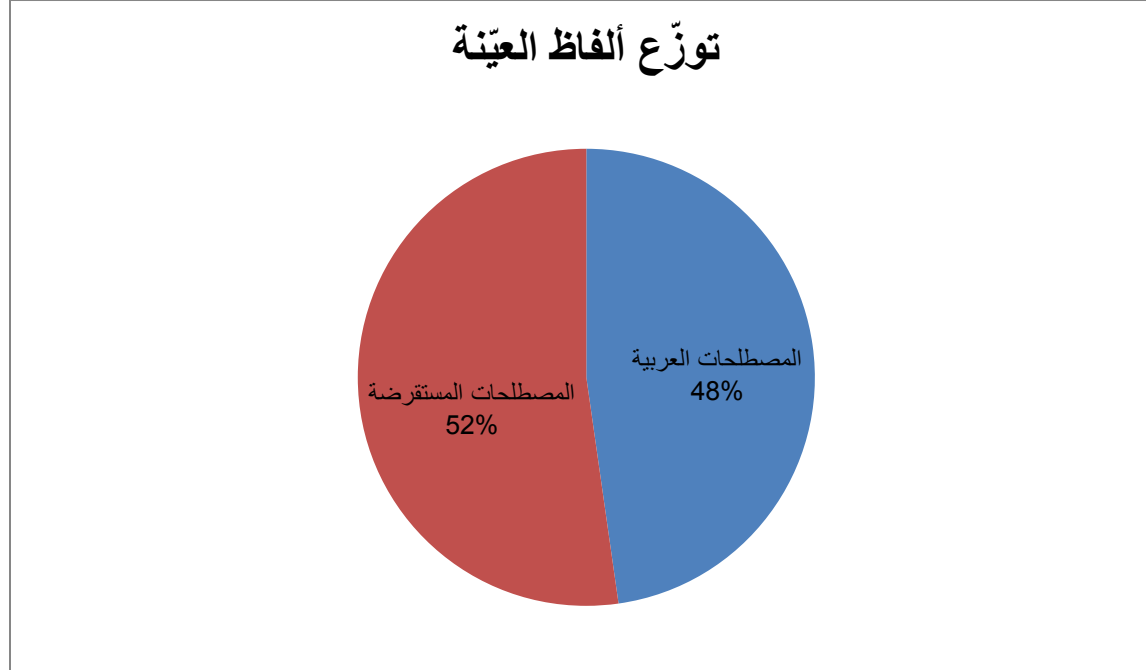
فريحه، فقد تبين لي أن الألفاظ العربية العامية الصّرف أو تلك التي على تواصل مباشر مع الفصحى هي بنسبة 48 % من

مجموع العينة، بينما الألفاظ المقتبسة المستقرضة من لغات أجنبية أخرى، هي بنسبة 52 %.

مجموع العينة: 522 مصطلحاً

مجموع الألفاظ العربية (العامية الصرف أو الفصحى): 249 (48%)

مجموع الألفاظ المقتبسة المستقرضة من لغات أجنبية: 273 (52%)



ولكن، ما هي نسبة ما اقتُبسَ في العامية اللبنانية من هذه اللغة الأجنبية أو تلك؟

إليكُم بالأرقام، في الجدول الآتي، ما تبينَ لي من خلال عملية رصدٍ إحصائيةٍ بسيطةٍ:

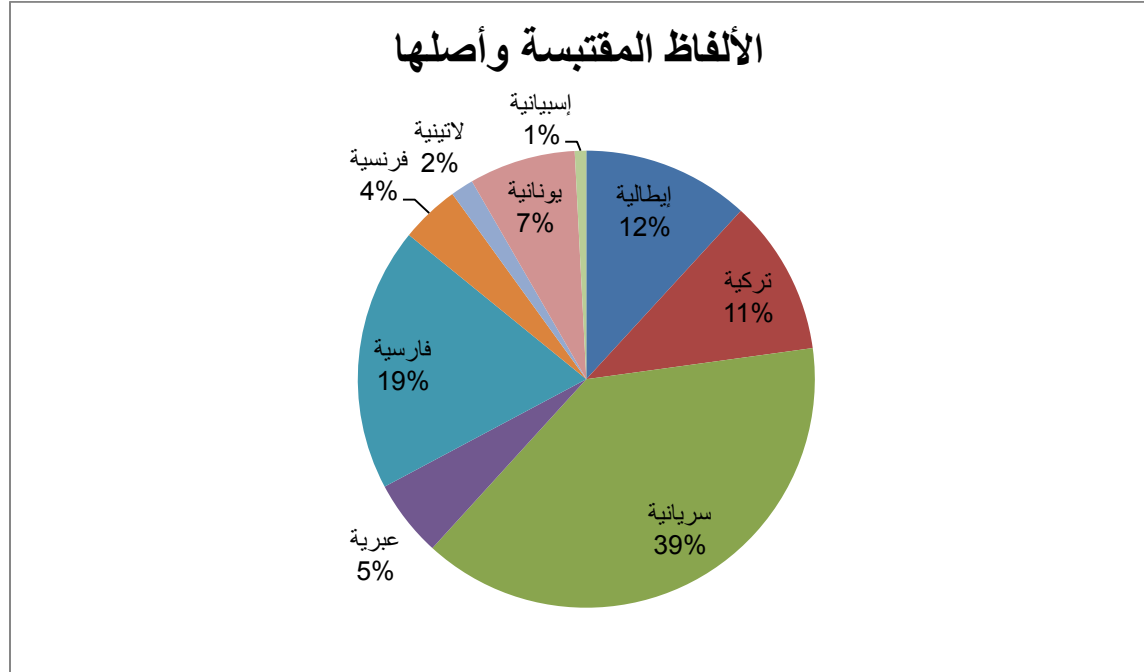
	إيطالية	تركية	سريانية	عبرانية/آرامية	فارسية	فرنسية	لاتينية	يونانية	إسبانية/برتغالية
حرف ألف	2	7	11	3	5	4	1	9	
حرف باء	26	19	81	10	39	6	3	9	2
مجموع الحرفين	28	26	92	13	44	10	4	18	2
النسبة المئوية	% 12	% 11	% 39	% 5	% 19	% 4	% 2	% 8	% 1
المجموع العام	237								

تأتي اللغة السريانية في رأس هذه اللغات التي اقتبست مفرداتها العامية اللبنانية (وهذا ما نسبته 39 %)، يأتي بعدها عددٌ

من اللغات الأجنبية الأخرى، وقد تناقص تدريجياً ما اقتبسته العامية اللبنانية منها، كما يلي:

المرتبة الثانية هي للفارسية (19%) والمرتبة الثالثة هي للإيطالية (12%)؛ وهلمَّ جرّاً: التركية (11%)، اليونانية (7%)،

العبرية (5%)، الفرنسية (4%)، اللاتينية (2%)، الأسبانية (1%).



نلاحظُ أن لا وجودَ للانكليزية في هذه العينة التي تتشكّل من الحرفين "ألف" و"باء" من العجم المذكور؛ لذلك لا بدّ لهذه الأرقام من أن تُصَحِّحَ، من خلالِ رصدٍ كاملٍ شاملٍ لجميعِ هذه الألفاظِ المقتبسةِ من اللغاتِ الأجنبية، ولكنّها - أي الأرقامُ - تبقى مُعَبَّرَةً إلى حدّ ما، وقد تجدُ لها تفسيراً في ظروف ألسنية، تاريخية، جغرافية، سياسية معروفة.

الخلاصة أن اللغة العامية، بتصرّفها هذا تهدف إلى تبسيط النظام اللغويّ العربي (الذي هو، كما قلنا سابقاً، نظام من الأنظمة المتداخلة) وإلى اقتراض ما هي بحاجة إليه من مصطلحات أجنبية تكيفها بحسب أنظمتها، في سبيل تسهيل عملية التواصل بين الناطقين بها./.

مصادر الدراسة ومراجعتها

فريحة (أنيس): معجم الألفاظ العامية، مكتبة لبنان، بيروت، 1973.

GUENOT, Jean :

Clefs pour les langues vivantes, (Sixième édition), Seghers, Paris, 1971.

Roman, André :

Systématique de la langue arabe/ Le binarisme – La phrase – Les faits de style – L'évolution de la

langue, Université Saint-Esprit de Kaslik, Faculté des Lettres, Kaslik-Liban, 2002, 2 tomes.

La création lexicale en arabe/Ressources et limites de la nomination dans une langue humaine

naturelle, Université Saint-Esprit de Kaslik, Faculté des Lettres, Département d'Interprétation et de Traduction,

CEDLUSEK, Liban et Presses Universitaires de Lyon, 2005.

ملحق: أصل الألفاظ العامية اللبنانية

الحرف "ألف"

تستعمله العامية مع الشين في آخر الفعل أو الظرف للنفي: "أترحش/ أفش"، "آ فهمنا"، "أ حلك تعقل!" وما معنا: "قد آن لك

أن تعقل"

إيطالية	تركية	سريانية	عبرانية- آرامية	فارسية	فرنسية	لاتينية	يونانية
1. إسكلة:	3. أرطة	10. أبّا	21. آفة:	24. أبهية	29. أبجور	33. أبرشية	35. أبرشية
مينا	4. أفندي	11. أبونا	حية	25. أركيلة	30. أبوكاتو	34. أسطول	36. إسقف
2. أص من	5. ألأجه:	12. بابا	22. أمير:	26. أستاذ	31. أرضي		37. أفيون
ورق	حرير	13. آتون	الرأس	27. اسطوانه	شوكي		38. إقة
اللعب	6. انجباري	(أرامي)	23. أبيض	28. أندبوري:	32. أضالية		39. إلماس
	7. أنجق:	14. بالآخر	من	فقير	(أسوجي)		40. أورتودكس
	بالكاد	(تركيب)	أض		(41. أوقية
	8. انكشاري:	(سر)					42. أير
	جنود جدد	15. إردب					43. أيقونة

					<p>16. إيسا</p> <p>17. أنبوية</p> <p>18. أُو: :</p> <p>الكف</p> <p>والنهي</p> <p>19. إيد/</p> <p>إيديين</p> <p>20. أيمتي/</p> <p>أيمتين</p>	9. أوضه	
--	--	--	--	--	---	---------	--

حرف "الألف" والألفاظ العامية أو العامية العربية الصرف:

1.	<p>40.</p> <p>41. ألفية: زجاجة تسع ألف درهم</p> <p>42. الله -</p> <p>43. يلاً: يا الله</p> <p>44. إلي: الذي</p> <p>45. إم؟ إمات</p> <p>46. إماية</p> <p>47. أمر</p> <p>48. أمر: جادل</p> <p>49. إن كان: نكتنك شاطر</p>	<p>21. استاهل: ملتينة من استاهل</p> <p>22. استحمى: من حمي</p> <p>23. استرجى: من جرؤ</p> <p>24. استرجى: من رجا</p> <p>25. استمنى: من منى</p> <p>26. استنوم: من نام</p> <p>27. استنى: من أني</p> <p>28. أسطة: الطاهي وكلّ حاذق</p> <p>29. إشبين/ شبيين</p> <p>30. أشّر استعمل يديه للإشارة</p>	<p>1. أب: والعامية تغيّرهما "بي"/ بيّات.</p> <p>واللفظ العامي تصغير أصله "أبي"</p> <p>2. أبد تأبّد (بمعنى نغمى العامية، راجع نأبد الوجه كلّف): تصنّع في حركاته وفي تصرفه. تكلف الأناقة في الكلام أو في المشي.</p> <p>3. إجا: (فصيحه جاء) جاي</p> <p>4. أجر</p> <p>5. آجار (فصيحه إجارة)</p>
----	--	--	---

	<p>50. أنكر : أنكرت معه 51. انكري : صينية من نحاس (الأنكر) 52. استنتى من استأنتى 53. أوباش : قد تكون أبواش : أشقياء 54. أوبة: الجماعة الراجعة (أرطه) 55. أود: مددّ وموادّ 56. أوعا من وعى 57. أوّل: أوّل بول 58. أولاني 59. أونطه: دلال وغنج 60. أوى (جوى): في الداخل/ تحت سقف 61. أيش: أي شيء 62. أيوا: إي والله</p>	<p>31. أشما: أشما بدّك: الجزء الأوّل مقطوع من أي شيء 32. إصحّ 33. إصطفل: من صفا 34. أكّل 35. إتاكل 36. أكلّة 37. آكله 38. إل: فصيحها لَ (إله/ إلي) 39. آلة ؟ أوائل</p>	<p>6. أوجر (أفعل من أجر قلبت الهمزة الثانية واوا). أجدر 7. إجر : فصيحها رجل 8. أخ: كلمة تحسّر وتمنّي 9. أخ: كلمة توجّع 10. إخي 11. إخت : ج خيأت (الجمع عامي) 12. إختيار: ج ختيارية (راجع : ختير) 13. آدم - 14. أدم: اقتصد. مأخوذ من دامه أي غلادام الذي يقتصد فيه في الطعام. 15. آدمي ج أوادم: فاضل شريف 16. آدمية 17. دامة: الدهن والقورما 18. أرضية: فصيحها الأصيل 19. أزمة (قارمة) : لوحة 20. أرنبيط/ قرنبيط ؟</p>
--	--	---	---

الحرف "باء"

تستعمله العامية مع الضمائر مثل "شو باك؟"، أي ما بالك؟ اختلف في أصله؛ فمن قائل إنه مقطوع من فعل "بغى"؛ ومن قائل إنه الباء في "بوّدى" = بدي. وقد يكون من بقايا لهجة سامية قديمة. ولربما أضيف لأسباب صوتية

إيطالية	تركية	سريانية	عبرانية- آرامية	فارسية	فرنسية	لاتينية	يونانية	إسباني/برتغالي
2. بابور	28. بارود	47. بال (العقل)	128. بتك (فتك)	138. بابوج	177. باج	183. بستريند	186. باقي: حبّ	195. بامة
3. بادري	29. بارودة	48. ببو (بويو)	129. بريم: شريط	139. باره	178. برتية	هـ	للعلف	196. بردقان
(راهب)	30. بخشش/بخشد	49. بابونج	130. بطاقة:قصا	140. بازار	179. بگل	(La	187. برنس	
4. باقة	يش	50. بجيج	صه ورق	141. باشق/ بواشق	180. پکله/	dées	188. بطرشيل	
(فرنسية)	31. برغي	51. بچّ	131. بعل	142. باطية: جزّة	بکل	se	189. بقّس (لا)	
5. باله	32. بُرما: حلوة	52. بجّة: شهرة	132. بقبش	143. بخت (حظ)	181. بلف	Stern	190. بقسماط	
6. بالو	33. برنجي	53. بحج	(فينيقي)	144. بردخ (تركي)	bluffer)	(ae	191. بلاطة/	
(حفلة)	34. برنيطه	54. بحر	133. بقّ: راجع	145. بردوشة (من)	(184. بندُق:	191. بلاطة/	
(رقص)	35. بَرَق (عود)	(عبر)/تبخر	134. بلقّس: حدّق	فردوس، عن	182. بودز/بود	نوع	192. بلبس/	
7. بنتية	36. بَرُونك: سافل	في العلم	135. برزق	طريق	ره	من	192. بلبس/	
(يو):	37. بُسط/بُشت:سا	37. Erudit)	136. بهز: صعق	(السريانية)	أرض	الجوز	193. بوليس	
يرميل	فل	55. بحش (عبر .	137. بويصة:شرفة	146. برزه	146. برزه	185. بوق/	193. بوليس	
8. برداية	38. بشلک (نقود)	ث=ش)	هـ	147. برشت:مسلوق	147. برشت:مسلوق	بواق	194. بيطر/بيطا	
(فارسي)	39. بشلک (أرض)	56. بحواش		148. برغّل	148. برغّل	ر	ر	
9. برميل	40. بصم: طبع	57. بخن						
10. برتستو :	41. بصمة: طبعة	(فحص)		149. برؤز	149. برؤز			
شكوى	42. بقجة:رزمة	58. بخوش		150. بریق: إيريق	150. بریق: إيريق			
11. بستوني	القماش	59. بخواش		151. بزيم/إيزيم	151. بزيم/إيزيم			
)	43. بقلاوة	60. مبخاش		152. بستوقه (جزّة)	152. بستوقه (جزّة)			
Baston	44. بكليك:ضريبة	61. بَدَق/يدقّ "ما		153. پس ويسه	153. پس ويسه			
(e	الأرض	في أيدق منه"		154. بَشَرْف	154. بَشَرْف			
12. بسطجي	45. بلطة: فأس	62. بَدّ (أمدّ		(موسيقى)	(موسيقى)			
(الجي	46. بويا	بالمال)		155. بَشَمّ	155. بَشَمّ			
تركية)		63. البذّة						

				156. بَشَقَ: ألبسه البشوقَة	(مصدر)	13. بَشَلِي/بَاز لا
				157. بَقْتَه: نسيج من القطن	64. بذار	14. بطارية
				158. بلاس/بُلَس	65. بَذِرَق (بعزق)	15. البُق :
				159. بركي/ بلكي	66. برحش	16. الفم
				160. برسيم (حرير)	67. برحوشة	17. بلوتيكَا
				161. بَنَج: بَنَج	68. بردعة	18. بندورة
				162. بِنْد: مادّة	(فارسي)	19. بَنْدِيرَه/
				163. بندر: مركز تجاري	69. بَرَا	بنادير
				164. بِنِيَقَه/بِنَاق: ط وق	70. برشانه	20. بنزين
				165. بهلوان	71. برطع (عبر)	البنط:
				166. بواربي: قصب	72. برطل	الرصيف
				167. باب	73. برعط	21. بنطلون
				168. النيوز: البارد/ المفم	74. البرعط	22. بنك/بنو
				169. البوزة	75. برغت: أخاف	ك
				170. باس	76. تبرغت	23. بورصة
				171. بولاذ/فولاذ	77. برقوق: ثمر	24. بوسطه
				172. بادنجان	بري	25. بُول:
				173. بيَزَق	78. البرك:	طابع
				174. البيرق	المحراث	بريدي
				175. بيك: مطرقة	79. برنق: لمع	26. بوليصَة
				النحاة	80. بزيزك ظهر	27. بيِرا
				176. بيِكز	81. بزبوزه	
				(بركار): دَوْر	82. بَز: الثدي، بزاز الكلية، بز السيكارة	
					83. بَس	
					84. بَشَط	
					85. بَصَن: رأى	
					86. بَطَل: عدل	
					عن	
					87. بطن (أول بطن)	
					88. بطانية	
					89. بَغِير (فَرَق)	
					90. باعوت	

						(صلاه)		
						.91 بعج:همز		
						.92 بعذرون: بزر		
						البصل		
						.93 بعز:ننثر		
						.94 بُعير:متوخش		
						.95 بعزق (أرام)		
						.96 بعزاق		
						.97 بعط (عبر)		
						.98 باعوط		
						.99 بعق: شقّ		
						.100 البعيق		
						(صوت		
						الماعز)		
						.101 باعقة:		
						عقريّ		
						.102 ببق/ بقبوقة		
						.103 بقدونس (بو)		
						.104 يقسه		
						(دواة/جزء)		
						.105 بكير		
						.106 بكّ		
						الديك:سغد		
						.107 بلبش/		
						تلبش: وقع		
						في ورطة		
						.108 بلشه		
						.109 بلشّ فلانا:		
						أوقعه في		
						ورطة		
						.110 ببط: محبّ		
						للأذى أو		
						لعوب		
						.111 تبالط		
						.112 بلّوعة: بئر		

						<p>113. بلق/ بلقا (بكل عين بلقا) 114. بلمَ (عبر): وضع البلامه (الكمامه) في فم الثور 115. بندق/تندق: فسد/ بندوق 116. بهق الفجر 117. بهله/بهان/تبه لن 118. بهميط: الطماع 119. بهور: تشامخ 120. بهوق (بهق): انبلج 121. بوحر (البواحير): تتياً 122. باخ اللون 123. بوطة، خوطة 124. بوعت: عيد الباعوت 125. ببذر 126. البيدر 127. بين: بيناتهم وبيناتنا.</p>		
--	--	--	--	--	--	--	--	--

حرف "الباء" والألفاظ العامية أو العامية العربية الصرف:

<p>37. بدوة (أول الشغل والعمل) 38. بربر (جذر سامي): اعتزل الناس 39. بربريك وحشي 40. بربريس (ضاق صدرًا) 41. بربريس (الأرض = رشها بالماء) / تبريصة الأرض 42. بروصة : ما يتبقى من قرص الصابون 43. بريبيص : ورق السنديان 44. بربريط (جذر برط؟) بمعنى بربريس أي لعب بالماء 45. بربرع _ جذر رعب بزيادة باء، برعب، وزن بفعلن مثل بربرك من ربرك، هم بربرع: أخاف. 46. بربرك (جذر ربرك وزن بفعل: ثرثر وهذر 47. بربراك : ثرثار 48. بربرتل (ويقولون برفل): لوح خشب 49. بربرج 50. بربرج: بصّر 51. مبارحة ومبارح: أمسرد على الشتل: سقاه 52. بربراد</p>	<p>19. بحوش (فعل) 20. بخبخ (ففع)، من بَخ = رش، فصيحها "بغش" 21. بَخ 22. بخ 23. بخش 24. بَخْش (تقب) 25. ببع (فصيحته "ببع") 26. ببعه 27. بخنوقة من خنق والباء زائدة: قطعة قماش تعصب بها المرأة رأسها 28. بدّي = بودّي 29. بدّع من الفصيح "أبدع" 30. بدّل (أبدل ثيابه) 31. بذله 32. بدا 33. بدّي (قدم الأهم) 34. أبدى (أهم) 35. بادى (البادئ) 36. تبدّي : عدل عن الأمر</p>	<p>1. باس: فصيحها "لا بأس" 2. باط: فصيحها "إبط" 3. باعوت/ بعث 4. البيّاط: المتزعم 5. بتبتت (وزن "ففع"، من بك/ بكى، والكاف تتغير أحيانا إلى ت) 6. بتبتت له: تضرّع له 7. بتّع: موجود في القاموس، ولكن العامية أحيته: أبلى بلاء حسناً، فتك، أفلح، والمصدر "بتّع". 8. بتّاع (ربما أصله "متاع": هذا بتّاع فلان: ملكه. 9. بجر (فصيحة بقر) شقّ 10. بجقّ (اجتماع الجيم والقاف يدلّ على عجميتها): صوت 11. باجوق: فم كبير 12. بجقه: ذو الصوت الصحّاب 13. بجل: أطمع الخروف أو الدابة 14. بجلة: نوع من السيارات أو التعقيبة المتفشية بين بدو شمال سوريا</p>
--	---	---

<p>53. بردية: الملايا 54. بروديه: طقس بارد</p>		<p>15. بجمة/بجم: أبله 16. بخص (فصيحتها الحصاء أي الحصا): "حطّ له بخصّة" 17. بخص (فعل)، فصيحتها "حصب" عبّد الأرض 18. بخلق (فعل)، فصيحتها "حلق"، وقد تتغير الميم إلى باء "حلق" ثم "بخلق"</p>
--	--	--

<p>91. بسوية: أسوة بي 92. بسين/ بسينه/بينات 93. بشبش: تنسم الأخبار 94. بشلل (بفعل/ من شل) 95. بشيمة (تحريف مشيمة) الغلاف الذي يكون فيه الطفل عند الولادة 96. بصيص (ففع): أضاء ولمع</p>	<p>73. برقعدي: من أهل برقعيد 74. برك الدالية. دفن أحد أغصانها في الأرض: المبروك : الدالية الجديدة المنبتقة من دالية أم 75. برك: قعد عن مرض 76. بركة : عل بركه /يبارك بعمرك: استعمال غير عربي، بل سرياني 77. براك: طحان</p>	<p>55. برى: نحى وجنب 56. براني: خارجي 57. برى 58. برانية : حالا وسريعاً 59. برز (الفصيح): ألبس وزين (برز حاله) 60. برش (قد تكون تصحيف لـ بشر) مبرشة. فعل المطاوع: انبرش</p>
--	--	---

97. بصبوص العين: بؤبؤ	78. برم: تجوّل وساح	61. برص الثياب: لم يحسن غسلها. انبرص (فعل مطاوعة)
98. بصبوصة نار	79. بزّام: العامل في معمل الحرير، يدير العجلة	62. بو بريص: ورّع
99. بصّر	80. بزّيمه: برغي	63. برطش: لبس البرطوشة (حذاء قديم)
100. بصّارة	81. برمكي: من عائلة البرامكة: كريم، جواد	64. برطاش: عتبة الباب
101. بصّة نار: جمرة	82. برنيّه: جرة صغيرة	65. برطم: غضب
102. بصلّ/بصّيله: الإسقيل (Scille)	83. برنيّه: قشة جذع الصنوبر أو الأرز	66. البطمة: الغضب
103. بصلّيّه	84. بروه: ما تبقى من لوح الصابون	67. البراطيم: الشفاه الغليظة
104. بضلّه: كسول	85. بزق/ بزق: بصق؛ بزقة، بزاق، بزقه	68. برقع: لطخ
105. بطبط (ففع): صار رخواً	86. بزّاقه	69. برقط
106. بطر	87. بزّل: أدخل في الجرح فنيلاً لامتصاص القيح	70. برقوطة: الجمر الصغير
107. باطور (باتور): حصير يوضع عليه	88. بزّم (ما بزّم بزمه: لم يتكلم كلمة واحدة)	71. برقع (فرعل من بقع)
دود القز	89. بزّط	72. برقع (بفعلز من رقع) : وضع الرقع
108. بطرخ: هزل وضعف وشحب لونه	90. بزّملّي: باسم الله	

109.	بظر : يلعن اللي بظرك	127.	بغدد وتبغدد: تغنّج من أهل بغداد	145.	البلبل/ البلابل
110.	بعبص: قلب الشيء باصابعه	128.	بغرينه: الحصاة الصغيرة	146.	بلحّق (الفصيح: بخلق)
111.	بعبع: تكلم بغضب	129.	بقج: قبّل	147.	بلشّ - تبليشه
112.	بعباع: كثير الكلام، قليل الأفعال	130.	البقجة: البقعة في العماش	148.	بلصّ (الفصيح: غبن)
113.	بُعبُع: غول	131.	بَقَع: لَطَخ	149.	بلطَح (فعلل من بطح) فلتح/قرطح
114.	بعجر	132.	بقحومة : دواة للحبر		مفرطح
115.	بعد: أبعد	133.	البقَط: ما فسد من الخضرة والفاكهة	150.	بلعط/ برعط
116.	بعدان: بعد أن	134.	بَقَط: أطمع (ازدراء)	151.	بلغص / ملغص تبغص
117.	البعيد (أي بعدت عن مكروه)	135.	بقا : فعل مساعد (ما بقا يسحي)	152.	بلغوصة: المكان الموحد والمشكلة
118.	بعذر	136.	البقوة (قليل البوقفة: لا يستحي)	153.	بليقي: طائر أبيض وأسود
119.	بعرر: صار كالبيع	137.	بكبك (ففع من بكى) تيكبك له	154.	بلكَم : أسكت/ تيلكم
120.	بعرورة/بعارير (من البعر)	138.	بُكرة: صباحاً	155.	بلكم: أكل بشراهة (البلكوم/البلاكيم:
121.	بع (بمعنى بعبع) صوت	139.	البكرية		اللقمة الكبيرة)
122.	بعكور	140.	البكبريه والسبوقية: العجلة أو الثمرة	156.	بلمه : بليد أبله
123.	بعُلل: تستعمل للعيون الجاحظة/		الناضجة قبل أوانها	157.	البلائن: شوك
	تبعلل: لم يستطع التنفس، فحفظت عناه	141.	بكع: لطم	158.	بنت/ بنات / بنيّه/ بنيّات (بنات
124.	بعوج: غمز وهمز	142.	بكعة: كمية من المال		الدينّة)
125.	بعوط	143.	بلاش : بلا شيء	159.	بندك (بندك لعب: من دون انقطاع)
126.	بغت/ انبغت	144.	بلبل/ تبليل: رطب وبلّ	160.	بهبط: صار فضفاضاً
				161.	بهت: تَوَقَّف قليلاً/ تغيّر لونه
				162.	بهدل: عتّف

181.	بَيَّضَ وجهه	163.	بَهَطَ (تصحييف هبط): صار فضفاضاً
182.	بَيَّاضَ أو المبيَّض	164.	بَاهِمٌ / بَوَاهِمٌ (إبهام)
183.	بَيَّاضٌ (من مصطلحات الصيام)	165.	بَهْمَطٌ من همط (الفصيح : اهتمط)
184.	بَيَّعَدَ (فيعل)	:	استغَلَ وغِبَنَ :
185.	بَيَّأَصَ (من بَأَصَكَ تَعَدَى وغِبَنَ)	166.	بَهُوَطٌ (بهبط) صار فضفاضاً
	تبييلصه: تَعَدَى على حقوقه. البييلصة: الغش.	167.	بَوَّجَ: وَجَّهَ وأدار
186.	بَيَّلَطَ : بَيَّلَطَ وشيَّلَطَ: امسك الولد بيديه ورجليه وأرجهه.	168.	بَوَّجَقٌ (من باجوق): صرخ
187.	بَيَّ جَ بَيَّات: الأب.	169.	بَوَّحٌ (فعل سامي قديم) مثل بَوَّع:
			روى الأرض
		170.	بَوَّرَدٌ / البرود: الطقس البارد (عل البرود)
		171.	بَوَّرَمٌ / تبورم
		172.	البوري
		173.	بَوَّطَلٌ، تَبَوَّطَلٌ، بَوَّطَلَةٌ: غَشَّ، غَبَنَ، تَعَدَى على حقوقه.
		174.	بَاظٌ وبَوَّظَ السوق: كسَدَ
		175.	بَوَّعٌ (بَوَّحَ): شرب من الماء كثيراً/ تَبَوَّعَ المكان: امتلأ ماءً
		176.	بَوَّعَطٌ (بعوط): لعب بالماء
		177.	بَوَّطَلٌ (مثل بَوَّطَل)
		178.	بَيَّبَتَ: أعطى مكاناً للنوم
		179.	بَيَّسَعَ (بَفَعَلَ، من وسع، أصلاً بوسع،

		<p>ثم قلبت إلى بيعس، تحت تأثير وزن قيعل): أفسح مكاناً 180. بيّش: جبّ، شتلة. فعل بيّش: أي حفر بيّشاً</p>
--	--	---

"دينامكية اللهجة في اللغة الأم"⁸

بقلم: جوزيف ميشال شريم

جاء في معجم "لسان العرب"، لابن منظور (1232-1311) الذي عاش في القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الميلاديين ، أن "اللسان هو جارحة الكلام، وقد يكتنى بها عن الكلمة، فيؤنث. [...] وإن أردت باللسان اللغة ، أنثت. يقال: فلان يتكلم بلسان قومه [...] وقوله عزّ وجلّ: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه؛ أي بلغة قومه [...] واللسان اللغة مؤنثة لا غير. واللسن، بكسر اللام، اللغة. واللسان: الرسالة. وحكى أبو عمرو: لكل قوم لسنّ أي لغة يتكلمون بها. ويقال: رجل لسنّ بين اللسن، إذا كان ذا بيان وفصاحة. والإلسان: إبلاغ الرسالة".

وجاء أيضا: "اللغة: اللسن، وحدّها أنها أصوات يعبرّ بها كل قوم عن أغراضهم [...] لغا فلان عن الصواب وعن الطريق إذا مال عنه؛ قال ابن الأعرابي: واللغة أخذت من هذا، لأنّ هؤلاء تكلموا بكلام مالوا فيه عن لغة هؤلاء الآخرين. واللغو: النطق. يقال: هذه لغتهم التي يلغون بها أي ينطقون بها".

⁸ أنجزت هذه الدراسة في 21 شباط 2013.

وجاء أخيراً: "اللّهجة: طرف اللسان، واللّهجة واللّهجة: جرسُ الكلام، والفتح أعلى. ويقال: فلان فصيح اللّهجة، وهي لغته

التي جُبِلَ عليها فاعتادها ونشأَ عليها [...] واللّهجة: اللسان".

نستنتج أن اللغة واللسان واللّهجة مترادفات، وأن اللغة أصوات يعبرُ بها كلُّ قوم عن أغراضهم، ، وانها إذا ما تكلم بها قوم،

فهم يميلون فيها عن لغة قوم آخرين، وأنّ الإلسان يعني إبلاغ الرسالة، وأن لهجة فلان هي لغته التي جبل عليها فاعتادها ونشأَ عليها.

وظيفة اللغة أو اللسان أو اللّهجة، هي، إذا، التعبير والتواصل من جهة، والتمايز وتحديد الهوية من جهة أخرى. وبكلام

آخر، يتيح هذا المثلث اللغوي للفرد وللجماعة أن يكون لهما هوية لغوية تميّزهما عن أقوام أخرى وتتيح لكل واحد التعبير عن فكره وإبلاغ ما يريد من رسائل. وفي كلّ هذا ديناميكية لغوية مؤكّدة لها مقوماتها وأبعادها.

ولكن ما المقصود بهذه الديناميكية؟

أندري رومان، في كتابه بعنوان: " الخلق المعجمي في العربية/ دراسة تعاقبية تزامنية لأصوات اللغة العربية وأشكالها الصرفية"⁹، الذي نشرته كلية الآداب في جامعة الروح القدس – الكسليك، لم يأت ولو مرة واحدة على ذكر مصطلح "ديناميكية اللغة العربية"، بل ركّز اهتمامه على تطوّر هذه اللغة وقد تکرّر مصطلح "التطور اللغوي" تسع عشرة مرّة في الكتاب المذكور، انطلاقاً من أن اللغة نظام من الأنظمة الصوتية والمقطعية والدلالية والنحوية، إلى آخره، وأن هذا التطوّر يطاول هذه المستويات كلّها. هناها هنا أمّا الطائب بكوش وفي مقالة له من تسع صفحات بعنوان "ديناميكية اللغة العربية"¹⁰، فقد كرّر مصطلح "الديناميكية" ستّ مرّاتٍ ولكتّه ربطه بمفهوم "تطوّر العربية"، الذي ورد في المقالة إحدى عشرة مرّة، وبعلاقة الفصحى بالعامية، أو باللهجة أو باللهجات.

من جهتي، سأطرح إشكالية ديناميكية اللهجة في اللغة الأم، انطلاقاً من مفهوم الاقتصاد اللغوي أو مبدأ الجهد الأقل.

9

André ROMAN, *La création lexicale en arabe/ Etude diachronique et synchronique des sons et des formes de la langue arabe*, Université Saint-Esprit de Kaslik, Faculté des Lettres, Département d'Interprétation et de Traduction, CEDLUSEK, Liban et Presses Universitaires de Lyon, 2005.

10

Taieb BACCOUCHE, « Dynamique de la langue arabe », in *Synergies*, Tunisie, n°1, 2009, pp. 17-24.

ماذا يعني مفهوم الاقتصاد اللغوي وما علاقته بديناميكية اللغة العربية؟

الطرح الأساس هو أن مبدأ الاقتصاد اللغوي يقوم على التوليف بين قوتين متناقضتين تعيشان حالة من النزاع المستمر في حياة اللغات: القوة الأولى هي حاجة المرء إلى التواصل والقوة الثانية هي جمود لغته وثباتها¹¹. وبالتالي، فإن الاقتصاد اللغوي هو تطبيقاً لمبدأ الجهد الأقل على وظيفة التواصل الكلامي؛ وهو يوحي بوجود **ديناميكية كلامية**، أي بوجود توازن في بنية اللغة، أي لغة كانت، يُعاد النظر فيه باستمرار بين قوتين تقف الواحدة منهما باستمرار، في مواجهة الأخرى: الميل إلى الجمود الذي يؤدي بالمرء إلى الحد مما يقوم به من جهد للتواصل، من جهة؛ وضرورة تأمين متطلبات التواصل المتغيرة المتبدلة بتبدل الزمان والمكان، من جهة أخرى¹².

11

Jean DUBOIS et autres, *Dictionnaire de Linguistique*, Larousse, 2001, 163.

12

Georges MOUNIN (sous la direction de...), *Dictionnaire de la Linguistique*, Presses Universitaires de France, 1974, p. 119-120, article « Economie », rédigé par Alain BALTAYAN : « L'économie d'une langue est le résultat de l'application, à la fonction de communication, du principe du moindre effort. [...] Cette notion d'économie suggère ainsi l'existence d'une **dynamique du langage**, c'est-à-dire, dans la structure, d'une position d'équilibre toujours remise en question entre les forces en présence, entre la tendance à l'inertie, qui amène l'homme à

لا شكّ في أن إشكالية الاقتصاد اللغوي هذه تحير اللغويين والألسنيين؛ ففي حين أنهم يصرون على محاولة النظر إلى اللغة على أنها بنية ثابتة ومتماسكة، يأتي استحداث الكلمات والتراكيب، لضرورات تواصلية بالطبع، ليبرهن أن اللغة (الفصحى والمحكية في آن) هي في حركة دائمة وبطريقة لا يمكن توقّعها؛ خصوصاً أنّ "قوانين" الاستنباط المعجمي التركيبي تتبدّل وتتغيّر باستمرار، بتغيّر العصور. ومع أن الناس كانوا يعتقدون أنهم يعرفون كلّ شيء عن قوانين صياغة كلمات معجمهم أو تراكيب الصرف والنحو الخاصين بهم، ها هي كلمات مستحدثة جديدة¹³ تبرز في المعجم، عن طريق اللغة الشعبية، من دون أن ننسى اللواحق وحتى السوابق التي لم يكن لنا عهد بها من قبل في اللغة العربية. أضف إلى ذلك أن آلية الاستحداث هذه لا تطاول المعجم فحسب، بل قواعد النحو أيضاً. من هنا الأسئلة الآتية: أين تقف الحدود بين الخطأ وبروز قاعدة لغوية جديدة (مثلاً: "الموادّ غير الصالحة/ المواد الغير صالحة"؛ و "كان استقبله على أرض المطار"). فهل هذه هي أخطاء لغوية، أم نحن بصدد قواعد جديدة، تدخل الفصحى عن طريق العامية؟

limiter le coût de ses communications, et la nécessité, par ailleurs, d'en assurer l'intercompréhension » (Souligné par nous-même).

¹³ وهذه بعض الأمثلة: "مَنَعَ فلاناً"، أي أعطاه مناعة معينة؛ "مَيَّلَ إلى فلان"، أي بعث إليه برسالة إلكترونية؛ "صَوَّرَ خ"، أي أسرع مثل الصاروخ.

الحقيقة أنّ آلية استحداث الكلمات أو التراكيب النحوية معطى أساسي في استعمالنا للغة، إذ نحن نعلم باستمرار إلى طرق كلامية جديدة، وبالتالي إلى استملاك لغتنا وخصوصاً لغة التواصل اليومي - أي المحكية - والتصرّف بها بطريقة غير منتظرة وغير متوقّعة.

في صيغتها الأكثر تشدداً، يمكن لآلية استحداث الكلمات والتراكيب أن تكون نوعاً من الشواذ أو الاستثناء، يؤدّي إلى إنتاج كلام جديد بالكامل، على مستوى المعجم أو على مستوى التركيب النحوي، كاستعمال كلمات مجهولة تركيب بينها قواعد نحوية شخصية تماماً

ولطالما أثارت آلية الاستحداث هذه الكثير من النقاشات. ما استلزم، على سبيل المثال، إنشاء المجامع اللغوية التي كانت مهمتها الأساسية، إلى حدّ كبير، القيام بعملية فرز المستحدثات، وإقصاء ما تعتبره غير مطابق لمعايير اللغة العربية المعيارية¹⁴. وحتى في أيامنا هذه، يؤدّي كلّ لفظٍ مستحدث، عند إدراجه في القاموس، إلى ردّ فعل انفعالي. فبعض المستحدثات تزول بالكامل؛ وبعضها الآخر الذي كان غير مقبول سابقاً، يصبح شائعاً اليوم.

عند هذا الحدّ، لا بدّ من طرح قضية العلاقة بين اللغة العربية الفصحى واللغة العامية، أو اللهجة المحلية أو اللهجات

المختلفة في البلدان العربية: هل من هيمنة معيّنة للفصحى على هذه اللهجات؟ أم إنّ هناك نوعاً من التعايش بينهما؟

اللغة المهيمنة واللغة المهيمن عليها¹⁵

من المتعارف عليه عموماً أن الأنظمة اللغوية - مهما كانت الأوضاع التاريخية التي توجد فيها هذه الأنظمة - تشهد

علاقات مدارية؛ أي إنّ لغة ما، تدور في فلك لغة أخرى، أو يدور في فلكها عدد من اللغات تعتبر ثانوية بالنسبة إلى هذه اللغة

المهيمنة. ونحن نعني بالـ "المدارية" أنّ الأيدولوجيا المهيمنة تعمل على ربط كيان لغويّ بكيان لغويّ آخر تقارنه به وتعتبره "تشويهاً"

له أو "شكلاً تابع له". ما يفترض وجود كيانات لغويّة سبق لها أن كانت مستقلة (على عكس العلاقة بين اللهجات العربية

والفصحى، كما سنبين ذلك في ما يلي). ذلك أن غياب القرابة وحتى أحياناً الاحتكاك اللغوي الظاهري لا يحميان في شيء من

هذه السيورة وهذا النسق؛ لأنّ الهيمنة هي العامل الفعّال والفاعل. وبالطبع فإنّ نسق الهيمنة (وما يقابله من خفض المنزلة) مرتبط

بالمعيار وبالتالي بالمؤسسة التعليمية؛ من هنا احتمال أن تكون العلاقات معقّدة بين اللغة القياسية الفصحى المهيمنة واللهجات العامية المهيمن عليها. وفي جميع البلدان العربية، على وجه العموم، نعاني مشاكل تربوية من جرّاء اللهجات الإقليمية. ذلك أنّ هناك موقفين متباينين: قوام الموقف الأوّل هو تشجيع المعلمين على القبول باللهجة العامية في الإطار التربوي؛ أما الموقف الثاني فيعتبر أنّ اللهجة تطرح مشاكل تواصلية، ليس في الممارسة اللغوية اليومية، وإنما في بعض الحالات عندما يتوجّه متكلمون من مساحات لغوية معيّنة ، إلى مستمعين من مساحات لغوية أخرى مختلفة: يعني ذلك أنّ من الضرورة القصوى تعلّم هؤلاء وأولئك اللغة القياسية (أي الفصحى)، وأن من المستحيل حلّ المشكلة بكلّ بساطة، بتغيير موقفنا من اللهجة العامية. نرى في كلّ هذا مشاكل قديمة حديثة يصعب حلّها في البلدان المعنية أي في لبنان والبلدان العربية، لأنّ الأبحاث في هذا الميدان ما زالت غير كافية، لا بل تفتقر إلى معطيات ذي قيمة يمكن الوصول إليها عن طريق التجربة والملاحظة. وهذا ميدان مفتوح على مختلف الأبحاث.

لغة برأسين¹⁶

وعليه، لا بدّ من تحديد العلاقة الجدلية القائمة بين الفصحى والعامية، تحديدا موضوعيّا علميّا، بعيدا عن أيّ مزایدات ديماغوجية برزت بشكل مستغرب في ما كتبه، مثلاً، وليام مارسيه في ثلاثينيات القرن الماضي (القرن العشرين)، بأسلوب يعكس الذهنية الاستعمارية الفوقية، بشأن ازدواجية اللغة العربية: "وما أدراك ما اللغة العربية؟ أهي لغة واحدة أم لغتان؟ [...] فلنقل إنّنا بصدّد حالتين للغة واحدة: حالتان مختلفتان لدرجة أنّ معرفة الواحدة منهما لا تستتبع بالضرورة معرفة الأخرى؛ ولكنهما في الوقت نفسه متشابهتان إلى درجة يكفي معها أن تسهّل معرفة الواحدة اكتساب الأخرى. ومهما يكن من أمرٍ، فإنها أداة للتعبير عن الفكر تصدم بغرابتها ما اعتاد عليه الفكر الغربيّ، إذ هي تشبه حيواناً برأسين لا تعرف المناهج الدراسية كيف تتعامل معه؛ لأنّ هذه

Lambert-Félix PRUDENT, « Diglossie et interlecte », in *Bilinguisme et diglossie, Langages*, n° 61, Larousse, mars 1981, p.17 : « Tel à mes yeux est l'arabe. Une langue ? Deux langues ? Pour qui a lu les *Antinomies linguistiques* de Victor Henry, la question est oiseuse. Disons deux états d'une même langue, assez différents pour que la connaissance de l'un n'implique pas, absolument pas, la connaissance de l'autre ; assez semblables pour que la connaissance de l'un facilite considérablement l'acquisition de l'autre. En tout état, un instrument pour l'expression de la pensée qui choque étrangement les habitudes d'esprit occidentales ; **une sorte d'animal à deux têtes, et quelles têtes !** que les programmes scolaires ne savent trop comment traiter, car ils ne sont pas faits pour **héberger les monstres**. On conclura peut-être que le premier responsable de la crise de l'arabe, c'est l'arabe » (souligné par nous-même).

المناهج لم تتجز كي تتعامل مع هذا المسخ العجيب. نستنتج من هذا، ربما، أن اللغة العربية هي المسؤولة الأولى والأخيرة عن الأزمة التي تتخبّط فيها"

الارتدادية والتنافذية

على عكس هذا الكلام المسيء إلى اللغة العربية والناطقين بمختلف لهجاتها، نتبى ما قاله أندره رومان¹⁷ في هذا الصدد: لأنّ الناطقين بالضاد يعتبرون، في غالبيتهم، اللغة العربية الفصحى لغة ثابتة مكتملة منذ آلاف السنين، كان لا بدّ من وجود لغة أخرى متحدرة من هذه اللهجة القبلية العربية أو تلك، تأخذ على عاتقها التعبير عن تغييرات الحياة اليومية بكلّ متطلباتها وأبعادها، وكذلك التطورات التاريخية والاجتماعية، في كلّ منطقة من مناطق العالم العربيّ أو المناطق المستعربة، فتتكيف مع معطيات الزمان وبالتالي تتميز تدريجيّاً مع مرور الوقت، عن اللغة العربية الفصحى. وهكذا تحوّلت هذه اللغات الإقليمية التي تشكّلت من جزاء الظروف والتجارب الخاصة بكلّ واحدة منها، إلى لهجات، إلى لغات من ميدان اللغة العربية، مع أنها ليست

العربية، بل تختلف عنها بأنظمتها المقطعية والصرفية والنحوية. وهكذا أصبح أول عامل من عوامل تطوّر اللغة العربية، في العصور الحديثة، هو بالتحديد اللغة الإقليمية التي يلهج بها كلّ واحد من أبناء هذه المناطق المختلفة من العالم العربي، والتي هي بمثابة لغته الأم، فيتواصل بها يومياً وتتداخل ولغته الرسمية العربية. وبالتالي، بطريقة ارتدادية، تسهم حالياً اللغات الإقليمية - أي اللهجات - في زعزعة اللغة العربية الفصحى، بعد أن أتاحت من جزاء وجودها وديناميبتها، ثبات هذه اللغة العربية الفصحى.

الإطار الاجتماعي اللغوي والتطلّعات المستقبلية¹⁸

ما هي خصائص الوضع اللغوي العربي الحالي وما هي مقوماته الديناميكية؟

إنّ أهمّ نتائج هذه الديناميكية اللغوية هي اتساع الهوة بين الفصحى واللهجة خلال عصور عديدة لم تعد فيها الفصحى اللغة الرسمية وذلك في زمن الإمبراطورية العثمانية، حين كانت اللغة التركية هي المهيمنة وتستعمل في الإدارة، على حساب اللغة

العربية وآدابها التي دخلت ما يسمّى بعصر الانحطاط حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. على عكس ذلك، تابعت العامية، وهي أكثر حيوية، تطورها بشكل طبيعيّ.

نعتقد أن هذا الوضع هو، على ما يبدو، في أساس النقاش الدائر اليوم في العالم العربي بين أنصار الفصحى وأنصار العامية، بعد أن اتسع استعمال الفصحى من جديد خلال القرن العشرين، وخصوصاً في النصف الثاني منه، مما أدى إلى انتهاء التعارض بين العامية والفصحى، على أساس توزيع للأدوار والمهام.

ما هي إذا الميادين الخاصة بكلّ واحدة منهما؟ وهل من نقاط التقاء وتعايش بينهما؟

يمكن القول إجمالاً إن الفصحى تهيمن تماماً في الميدان الكتابي؛ أما العامية فتهيمن في الميدان الشفهي، لأن وجودها في الميدان الكتابي محدود جداً، ولا يكتب إلا جزء مما تنتجه وهي تفتقر بالتالي إلى قواعد واضحة المعالم. لا شكّ في أن البعض يكتب بالعامية، عدداً من المسرحيات وسناريوهات الأفلام والمسلسلات التلفزيونية والحوارات في الروايات والقصائد الشعبية والأغاني، إلى آخره. ولكن نشر هذا المكتوب باللغة العامية يبقى ضيق النطاق. ذلك أن قطاع النشر يقتصر إلى حدّ ما على

الفصحى. يضاف إلى ذلك أن الفصحى ليست غائبة تماماً عن الميدان الشفهي، أكان في النقاشات الإذاعية والتلفزيونية، أم في المداخلات التعليمية المدرسية والجامعية.

وثمة أشكال جديدة من توزيع الأدوار ترى النور أكثر فأكثر، في ميدان الإعلانات وشبكات التواصل الاجتماعي، وهي تستأهل أن يدرسها الدارسون عن كثب.

ما يمكن استخلاصه من كلّ هذا هو أن الفصحى هي إحدى اللغات القديمة النادرة التي بقيت على قيد الحياة، بموازاة اللهجات العامية، من خلال توزيع تكامليّ للأدوار، بالنظر إلى عدد من العوامل: إنها لغة نصّ مقدّس، ساهم في انتشارها وتألّفها، كتعبير عن حضارة لامعة. يضاف إلى ذلك أن الناطقين بالضاد الذين تشبّعوا من الثقافة العربية والذين يتعلّقون بدينهم، يحترموا لغتهم العربية ويعتبرون أنها بونقة هويتهم ورمز وحدتهم الثقافية والروحية. ومع ذلك، فإن الفصحى هي في خضمّ من التطور والتبدّل، باتجاه سجل لغويّ هو، على ما يبدو، السجل الصحافي الذي سيسود في نهاية المطاف بفضل الوسائل السمعية البصرية، وشبكات التواصل الاجتماعي المستحدثة؛ وسيمتاز هذا السجل اللغوي بانفتاحه الكبير على الاقتراض اللغويّ والمحاكاة والعبارات الجامدة العامية، مع ما سيتبع ذلك من تجاوز لقواعد اللغة السوية ولاعتراضات المتزمتين النحويين. وستكون العربية الحديثة بفضل

وسائل الاتصال المكتوبة والسمعية البصرية في جميع البلدان العربية، حصيلة اللهجات الإقليمية التي تشهد تلاقحاً مستمراً بين الفصحى والعامية.

هدفي من هذه الدراسة أن أضع حدًا للجدل القائم بين من يقول إنّ لغتنا الأم هي اللهجة العامية، ومن يقول إنها الفصحى. الواقع أنّ لغتنا الأم هي في الوقت عينه اللغة الفصحى واللهجة العامية، وهذا عنصر قوّة وإثراء للغة الضاد والناطقين بها، لا يمكن لأحد نكرانه./.

مراجع الدراسة

BACCOUCHE, Taieb :

« Dynamique de la langue arabe », in *Synergies*, Tunisie, n°1, 2009, pp. 17-24.

DUBOIS, Jean et autres :

Dictionnaire de Linguistique, Larousse, 2001.

MARCELLESI, Jean-Baptiste :

« Bilinguisme, diglossie, hégémonie : problèmes et tâches », in ***Bilinguisme et diglossie, Langages***, n° 61, Larousse, mars 1981, pp. 5-11.

MOUNIN, Georges (sous la direction de...) :

Dictionnaire de la Linguistique, Presses Universitaires de France, 1974.

PRUDENT, Lambert-Félix :

« Diglossie et interlecte », in ***Bilinguisme et diglossie, Langages***, n° 61, Larousse, mars 1981, pp. 13-38.

ROMAN, André, ***La création lexicale en arabe/ Etude diachronique et synchronique des sons et des formes de la langue arabe***, Université Saint-Esprit de Kaslik, Faculté des Lettres, Département d'Interprétation et de Traduction, CEDLUSEK, Liban et Presses Universitaires de Lyon, 2005.

ROMAN, André, ***Systématique de la langue arabe/ Le binarisme – La phrase – Les faits de style – L'évolution de la langue***, Université Saint-Esprit de Kaslik, Faculté des Lettres, Kaslik-Liban, 2001, 2 tomes.

SIOUFFI, Gilles et Dan Van RAELDONCK, ***100 fiches pour comprendre la linguistique***, Bréal, Rosny, 1999.

نظامية اللغة العربية¹⁹

بقلم: جوزيف ميشال شريم

لا حاجة بنا إلى التذليل على الدور الفعال الذي تؤديه جامعة الروح القدس - الكسليك عموماً وكلية الآداب خصوصاً في تدعيم اللغة العربية، وهو دور تاريخي يعود إلى أجيال وأجيال. للتذكير فقط أؤكد أن كلية الآداب، وبعد إنشاء قسم اللغة العربية وآدابها، في العام 2002، لم تتوقف يوماً عن تنظيم الندوات الخاصة بهذه اللغة خصوصاً في إطار مؤتمراتها على مرّ السنوات الماضية؛ ولم تتورّع عن نشر الأبحاث الرصينة الخاصة باللغة العربية، مهما كانت اللغة التي كتبت فيها هذه الأبحاث، ومن بينها: "نظامية اللغة العربية"²⁰ و"الخلق المعجمي في العربية"²¹.

¹⁹ نورد تحت هذا العنوان ترجمة أنجزناها في الأول من آذار/مارس 2010، لما كتبه البروفيسور صلاح مهيري، وهو رئيس سابق لجامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية في تونس، تقديمًا لكتاب أندري رومان:

André ROMAN, *Systématique de la langue arabe/ Le binarisme – La phrase – Les faits de style – L'évolution de la langue*, Université Saint-Esprit de Kaslik, Faculté des Lettres, Kaslik-Liban, 2001, pp. 8-11.

²⁰ André ROMAN, *Systématique de la langue arabe/ Le binarisme – La phrase – Les faits de style – L'évolution de la langue*, Université Saint-Esprit de Kaslik, Faculté des Lettres, Kaslik-Liban, 2001, 2 tomes.

يسعى أندري رومان، من خلال هذين الكتابين، إلى تحقيق هدف واحد: ألا وهو إرساء أسس نظامية اللغة العربية. وفيهما

مفهوم "النظام" (Système) موجود دائماً، بطريقة واضحة بيّنة.

بالنسبة إليه، كل شيء قائم على النظام، وكل شيء يمكن وصفه، وينبغي وصفه، وتفسيره انطلاقاً من مفهوم النظام هذا.

فهو مقتنع بأن اللغة العربية قائمة على تركيبية معينة مترابطة تتضمّن، بالضرورة، نظاماً (sous-système) للتسمية ونظاماً

للتواصل؛ وكل واحد من هذين النظامين يتضمن بدوره، أنظمة ثانوية خاصة به، يكون بعضها مشتركاً بين جميع اللغات. ويعود

إلى الألسني أن يبرز هذه المستويات المختلفة وأن يبيّن تماسكها، من خلال الرجوع عند الحاجة إلى مفهوم التعاقبية [La

.diachronie]

²¹ André ROMAN, *La création Lexicale en arabe*, Université Saint-Esprit de Kaslik, Faculté des Lettres, Département d'Interprétation et de Traduction, CEDLUSEK, Liban et Presses Universitaires de Lyon, 2005.

يبرز هذا الاهتمام المعرفي من خلال استعمال المؤلف عبارات هي الآتية: "أصل اللغة"، "تكوين اللغات"، "بناء اللغة...، ووحدات اللغة...، والجملة"، "تطور المورفيمات"... . ولهذا السبب، هو يبحث بطريقة منهجية، من خلال الاهتزازات التي أصابت نظام اللغة العربية، من جزاء عوامل داخلية وخارجية متنوعة، عن تماسك هذه اللغة وعن أقدم تجلياتها التاريخية.

مهما يكن من أمر، فقد حافظت اللغة العربية، بنظره، على سمات تماسك واضحة بما يكفي، كي نستطيع اعتبارها "النموذج العام لتكوين اللغات السامية وتطورها".

يندرج هذان الكتابان المخصصان "النظام التسمية" و"نظام التواصل" في إطار مشروع واسع المدى يترجمه عنوان عام: "نظامية اللغة العربية".

هذان الكتابان هما ثمرة تفكير باللغة العربية، وحب الإطلاع على الشعر العربي الذي يعود إلى ما قبل الإسلام خصوصا وعلى نص القرآن الكريم، وعلى مؤلفات كبار كالجاحظ والهمذاني والحريري... ولا يهمل مؤلفهما بأي شكل من الأشكال اللغة العربية المعاصرة التي يتعامل عن كثب مع استعمالاتها في بعض المؤلفات الإبداعية، كما في الكتابات النثرية.

بحث المؤلف في عدد لا يحصى من النصوص، عن الاستعمالات الأكثر دلالة على تماسك النظام أو اهتزازه، واستخرج مئات الأمثلة المتنوعة التي أخضعها لمقاربة خاصة تجمع بين التقليد النحوي والنظريات الألسنية المختلفة. وما الحواشي الغنيّة سوى دليل على معرفته العميقة بنتاج النحويين العرب، وخصوصاً بنتاج معلّمهم من دون استثناء، سيبويه، الذي يستشهد به مراراً وتكراراً، والذي يقدر طرقه وطريقة تفكيره، من دون الإحجام، مع ذلك، عن انتقاده. ولا يتردد كذلك في إظهار الاختلاف بين طريقتيه في تحليل الجملة وطريقة غيره من الألسنيين اللغويين، وفي إبراز ما لهم من فضل في إرساء قواعد اللغة العربية.

يبدو لنا أن مقاربة أندري رومان هي ثمرة تفكيره في اللغة والتقليد النحوي، والكتابات العائدة إلى اللغات السامية والنظريات الألسنية. إنها مقاربة مؤرخ للغة، يعيد بناء نظام اللغة العربية، انطلاقاً من بعض الدلائل والمعطيات المثبتة في اللغات السامية. إنها خصوصاً مقاربة ألسنية يصف ويفسر انطلاقاً من الفرضية المؤسسة للنظام الذي يعيد بناءه، باحثاً في أقدم النصوص عن شواهد تؤكد صحة هذا النظام.

قد يشعر المرء بالضياع، إذا ما قرأ هذين الكتابين قراءة متأثراً بهذه النظرية اللسانية أو تلك، أو من خلال موازنة بين المفاهيم التي يتعامل معها المؤلف ومفاهيم النحويين العرب.

في الواقع، كي يتمكن المرء من قراءتهما من دون الشعور بالضياح، عليه أن يتذكر باستمرار النهج الذي اتبعه أندري رومان، ألا وهو البحث عن البساطة، وهو نهجٌ يتبدى في المسلمة الوحيدة التي بنى، على أساسها، نظريته بشأن اللغة العربية: الثنائية. كلُّ شيء ينظر إليه هنا وفاقا لصيغة ثنائية، هي في نهاية المطاف أفضل طريق للبحث عن النظام اللغوي. أي إن كل الأمور تسير، نوعا ما، اثنين اثنين: الصوامت/الصوائت؛ الجذور المكونة من حرف صامت واحد/ الجذور المكونة من ثلاثة أحرف صامته؛ الوحدات المنصرفة/الوحدات الجامدة... وتتبدى هذه الصيغة الثنائية بشكل أوضح أيضا في بناء الجملة. فالجملة البسيطة تشتمل على مكونين أساسيين يوازيان، مبدئيا، بين طبقتين من الوحدات الدلالية: "الأفعال ومشتقاتها التي تدلّ على زمن ما" [Les modus] و"الأسماء ومشتقاتها التي لا تشير إلى زمن معيّن" [Les res]. ويشكّل هذان المكونان الأساسيان نواة الجملة؛ أما الباقي، فهو "اتساعات" [Des expansions].

[...]

هكذا يقترح أندري رومان علينا بناءً متماسكاً عقلائياً حتى أقصى الحدود. يمكن أن لا نتفق معه. ويمكن أن نعترض على بعض تفسيراته. ويمكن، بالتأكيد، أن نعيد النظر في تصوره العربية الأولية. ولكننا لا نستطيع إنكار المنطق الذي يتميز به نهجه العلمي، أو الدقة في استدلاله المنطقي، أو انسجام أفكاره وتطابقها مع منطلقاته الأساسية.

الأهم من كلّ هذا، هو الفصل الذي خصّصه لتطور اللغة العربية من جزاء تأثير عوامل داخلية وخارجية. ويمكن للمرء أن يتولّد لديه انطباع أحياناً، هنا أو هناك، أن أندري رومان يهاب نتائج هذا التطور الذي قد يزيد من صعوبة فهم هذا النظام وتعقّده. ولكنه، بصفته ألسنيا صالحاً، لا يستطيع إلا أن يسجّل هذه الظاهرة، من دون التخلي، مع ذلك، عن تفسيرها. ويبدو لنا أن هذا الفصل، بالإضافة إلى ما فيه من فائدة خاصة، يدعّم تماسك مجموع ما ورد في الكتاب، ويقدم، من خلال نظرة شاملة، أسباب تطوّر النظام والاهتزازات التي قد تصيبه.

بالطبع، يهتم هذا الكتاب، قبل كلّ شيء بنظامية الجملة العربية؛ ولكنه يشكّل أيضاً كنزاً كبيراً وكبيراً جداً من المعلومات والمعارف، بفضل ما لا يقلّ عن ألفين وخمسمائة خاشية تؤدي بالتأكيد دورها في الإضاءة على النص وتوضيحه أحياناً. وهي أيضاً تأتي بالبرهان على الثقافة العربية الممتدة الأطراف التي يتمتع بها المؤلّف وعلى كثرة اهتماماته العلمية وتنوعها. والكثير

من هذه الاهتمامات لا تقتصر على الإحالات، بل هي بيانات تفصيلية للتقليد النحوي، أو النظريات الألسنية، أو لوجهة نظر هذا الألسني أو ذلك، أو لخصائص اللغات الأخرى، أو تحليل لأداة وظيفية ولشكلها التاريخي المستوفي الشروط... وفي بعض الأحيان، تتشكل الحواشي وسيلة ملائمة تسمح للمؤلف بإيضاح تفكيره بشأن قضايا من الألسنية العامة، وفلسفة العلوم.

فضلا عن ذلك، يشكّل هذان الكتابان، إلى حدّ ما، أنتولوجيا من النصوص المختارة من نتاجات العشرات من الكتاب والشعراء الذين ينتمون إلى عصور أدبية مختلفة، وعرضًا بانوراميا لمؤلفات فكرية أدبية وتقنية، وخصوصا نحوية ونقدية.

بفضل هذين الباحثين، يحقق أندري رومان طموح كلّ ألسني يبادر إلى دراسة لغة ما: الوصف والتحليل والتفسير والتعليل. حاول النحويون العرب فعل ذلك، كما سبق لسيبويه أن شهد بذلك عندما قال: "وليس شيءٌ يُضْطَرُّونَ إليه، إلّا وَهُمْ يُحَاوِلُونَ به وجهاً". ولكن الفضل يعود إلى أندري رومان في تحقيق ذلك، بحسب تصوّر شموليٍّ يبرز ترسيمات الجملة العربية.

ليست نظريته نظريةً مفصّلةً على قياس اللغة العربية، بل هي نظرية عامة تصلح نقطة انطلاق لدراسة الجملة في جميع

اللغات، مع أخذ خصوصيات كلّ واحدة منها في الاعتبار./.